

كن واعياً واختر طريق الفلاح



هذا، وقد وردت كلمة الفلاح في القرآن الكريم أربعين مرّةً بأكثر من صيغة، والصّيغ التي ارتبطت بالفلاح في الآيات، وحتّى في الأحاديث الكثيرة، لم يقتصر مضمونها على التعبّد وذكر الله والإيمان به وبباقى الجانب العقيدى، إنّما طالت سلوك الإنسان في كلّ مناحي الحياة. فحصاد المؤمن من مواسم عطاءه وعبادته، هو حصاد مطلق، حصاد لا يتجزأ، هو سعادة واطمئنان في الدّنيا، وفلاح وثواب في الآخرة.

والفلاح في اللّغة ليس لقطة نجاح أو ربح في زمن أو مكان ما، وليس ثروةً جُمعت ولا منصب أو موقع، ولا هو قصر أو ممتلكات، بل هو مسار ممتدّ من الولادة حتّى الممات.. في اللّغة، الفلاح هو الشقّ والفوز، ومن هنا يقال فلح الأرض، أي شقّها لرمي البذور فيها. وأفلح الإنسان، أي فاز ونجا وطفّر بما يطلب ويجلب له الخير.

إنّ العلاقة واضحة بين عبادة المؤمن وسعيه وكدحه إلى ربّه، وبين عمل الفلاح وكدحه لتأمين لقمة عيشه. الفلاح، هو من يشقّ الأرض، يحريثها، يعتني بها، ليرمي في أثلماها بذوره، وكلّاه رجاء وأمل في

أن يُحصّل لعياله موسماً جيّداً. فالمنطلق واحد: كدّ وسعي، والأسلوب واحد: زراعة بذور لنيل موسم حصاد جيّد.

وكم هو جاهل وغبيّ وطالم لنفسه، إذا اختار الفلاح بذوراً لا يثق بجودتها، ويعرف أنّها قد لا تثمر، أو إذا رمى بذوره في أرض ميتة أو صخريّة. فلاح كهذا، لن يحصد غير الخيبة والخسارة، وهكذا هو الإنسان الذي يغفل عن نفسه وعن ربّه، ويغفل عن أنّ "الدنيا مزرعة الآخرة"، كما ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

أمّا الذي يتبع نهج المفلحين الذي رسمه لنا القرآن، فإنّّه مثل ذلك الزارع العاقل، وحصاده المأمول والمُرتجى معلوم ومعروف ولا شكّ فيه: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ} فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ { [الأعراف: 8].

سؤال يسأله كلّ من يسمع "أولئك هم المفلحون": كيف أكون واحداً منهم؟ سؤال يشكّل نقطة البداية للالتحاق بركب هؤلاء. وجوابه في حديث رسول الله، إذ يقول (صلى الله عليه وآله وسلم): "قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليماً، ولسانه صادقاً، ونفسه مطمئنّة، وخليقته مستقيمة، وأذنه مستمعة، وعينه ناظرة"... وجوابه في حديث عليّ (عليه السلام): «من غلب عقله هواه أفلح.. أطلع العلم واعص الجهل تُفلح».

وأنت عندما تجعل إيمانك بهذه المواصفات، عندها ستري طريق الفلاح بيّناً واضحاً، وتسلكه مطمئنّاً، وكلّ محطات حياتك وكلّ مواقفك ومنطلقاتك، تقيمها تحت شعار: "لعلّني أكون من المفلحين". ويُعلّمنا القرآن الكريم فيقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة: 35].

الوسيلة هي الطريق، أو الأسلوب، أو أيّ أمر يُمكن أن يُقرّبك ممّن تُريد التقرب منه. والله عزّ وجلّ ليس زعيماً وجيهاً، يُجبرك على أن تريق ماء وجهك كي تتقرب منه، الله عزّ وجلّ غنيّ عن عباده، ولا يُريد لهم سوى العزّة والكرامة والخير والمصّلاح. لهذا، فإنّ أيّ فعل أو قول يقع تحت عنوان العمل الصّالح، هو وسيلة صالحة تؤمّن لك الوصول إلى ساحة رحمته، المهمّ أن تبدأ الكدح في رحلتك إلى الله.

أنت لست مكرهاً لتكون من المفلحين أو المؤمنين، ولا أحد يحمل سوطاً ويكرهك على الكدح لوجهه [١]. هذا شأنك، وهذا خيارك، وببيدك الخيار لتكون ما شئت، لكنك لن تستطيع أن تُسكت هواجسك وقلقك وأسئلتك، كلما خلوت إلى نفسك أو كلما مرَّ الموت من أمامك، وما أكثره هذه الأيام: ماذا بعد الموت؟ وهل يستأهل هذا أن آخذ احتياطاتي بأن أتهيباً.. بأن أتحصّراً.. أتزوّد...؟ الأمر متروك لك.

الأرض كالعمر، والعمر كأرض في عهدتك، فإذا تركت أرضك بوراً، فإنَّها ستشكوك إلى [١]، وتقول لك: ضيّعَ عتني ضيّعَكَ [١]. وكذلك سيشكوك عمرك إلى [١] في كلِّ دقائقه وثنوانيه، بكلِّ شبابه وشيبه، وستُسال عنه فيما أفنيته وأبليتته..

فمن كان ديدنه الغشُّ أو الكذب أو النفاق أو الظلم، فلا مكان له بين المفلحين، ف[١] يقول في كتابه العزيز: {إِنَّ زَنْهًوً لَا يُفْلِحُ الْظَّالِمُونَ} [الأنعام: 21]، {إِنَّ زَنْهًوً لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ} [يونس: 17]، {إِنَّ زَنْهًوً لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون: 117]، {إِنَّ الْكَذِبِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} [يونس: 69].

أمّا الإنسان العاقل، فهو من يوطّف رصيده عمره في طاعة [١]، فهذا الرّصيد قابل للنّفاد في أيّ لحظة، ومتى أُقفل، فإنَّ قوّة الأرض كلّها لن يمكنها أن تجدّد لك فيه أو تطيله ولو ثانية.

والعاقل من لا يضع قدماً في البور وقدماً في الفلاحة، طنبّاً منه أنّه يستطيع الجمع بين التجارة مع [١] والتجارة مع غيره طمعاً في زيادة أرباحه.

المفلحون تراهم في الّذين يؤمنون بالغيب، ويطيّمون الصلاة، ويؤتون الزّكاة، ويأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر..

تراهم في الذّاكرين والشّاكرين والمستغفرين بالأسحار..

تراهم في الّذين هم في صلاتهم خاشعون، وللزّكاة فاعلون، وعن اللّغو معرضون..

تراهم في من هم لأماناتهم وعهدهم راعون، وعلى صلواتهم يحافظون.

تراهم في الّذين لا يوادّون من حادّ [١] ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو

تراهم في الذّين لا يأكلون الرّبا أضعافاً مضاعفةً بغية الرّبح ولو على حساب تعب الآخرين ومعا ناتهم.

تراهم في من يصبرون ويمابرون ويرابطون في سبيل الله...

تراهم في المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم...

تراهم في الثّابتين الرّاسخين المتجدّرين في إيمانهم، مهما كبرت التحدّيات وبهظت أثمان الإيمان، ومهما كان الألم عظيماً ومهما ثخنت الجراح...

فالثّبات على خطّ الفلاح يُختبر في الأزمات وفي البلاء والشّدّة، والمؤمن الثّابت يتحمّل كلّ هذا لأنّه يرى النّتيجة أمامه، يرى حماد عمره أمامه وفيراً، يرى ثقل موازينه، يرى نفسه وهو يؤتى كتابه بيمينه، يرى كيف تستقبله الملائكة، وكيف يساق إلى الجنّة زمراً مع إخوانه المؤمنين، يفتح لهم خزنتها أبوابها: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَيعْتُمْ فَادْخُلُوا هَٰذَا مِنْ بَابٍ مَّا تَشَاءُونَ} [الزّمر: 73]، {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النّحل: 32].

إنّ رسالة الإيمان واضحة ولا لبس فيها: كن واعياً واختر طريق الفلاح. فالدين ليس ثوباً نرتديه، الدّين حبّ وحياة صالحة، ومعاملة ونصيحة، ورفق وعصمة واستقامة، وهو إلى ذلك صمّام أمان لعيش كريم، هو حرب ضدّ الحقد والبغض والفساد والانحراف، وثورة من أجل الحياة وبناء الحياة.